مع عُيُون الأَخْبَار

من أشهر كتب ابن قتيبة ، بل من خير الكتب التى تقدِّم لقارئها مادةً طيبة تصقل ذهنه ، وتؤدب نفسه ، وتَزيدُ من معارفه .

ويرى ابن قتيبة أنه لا تكتمل ثقافة الأديب مالم يُزَوَّد بقدر صالح « من المتخيّر من كلام البلغاء ، وقِطَنِ الشعراء ، وسِيَر الملوك ، وآداب السَّلف ، لِيُرَوضَ نفسه على الأخذِ بما فيها من سُنَّة حسنة ، وسيرة قويمة ، وأدب كريم ، وخلق عظيم ، ويَصِلُ بها كلامَه إذا حاورَ ، وبلاغته إذا كتب » .

ويصف كتابه فيقول عنه هو « **لِقاح عقول العلماء ، ونِتَاج أفكار الحكماء** » .

ولابن قتيبة فضل على غيره من مؤلفى عصره فكتبه منظمة ، حسنة الترتيب ، بينما فضل الآخرين ينحصر فى الاختيار والنقل والجمع .

من هنا كان اختيار « **كتاب النساء** » لابن قتيبة أمرًا مدروسًا بعناية ، روعى فيه حسن الاختيار ، وجمال العرض ، ووضوح الهدف ، وسمو الغاية !

إنه هو « **الكتاب العاشر** » من « **عيون الأخبار** » للشيخ الإمام أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفّى سنة ٢٧٦ هـ .

ويقول فى مقدمته : إن زكاة العلم نشره ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحمدُها مَغَبَّةً ، وأحمدها مغبةً ما تُعلِّم وعُلِّم لله ، وأريد به وجهُ الله تعالى .

ونحن نسأل الله تعالى – جلّ وعلا – أن يجعلنا بما علمنا عاملين ، وبأحسنه آخذين ، ولوجهه الكريم بما نستفيد ونُفيد مريدين ، وبحسن بلائه عندنا عارفين ، وبشكره آناء الليل والنهار متمسكين . إنه أقرب المدعوين ، وأجود المسئولين . ثم يحدثنا عن كتاب النساء فيقول :

والكتاب العاشر من « **عيون الأخبار** » هو « **كتاب النساء** » وفيه الأخبار عن اختلاف ا لنساء فى أخلاقهن وخلقهن ، وما يختار مِنْهُن للنكاح ، وما يُكْرَه ، واختلاف الرجال فى ذلك ، والحسن والجمال ، والقُبحُ والدمامة والسواد ، والعاهات ، والعُجُز والمشايخ ، والمهور و خطب النكاح ووصايا

الأولياء عند الهداء ، وسياسة النساء ومعاشرتهن ، والدخول بهن ، والجماع والمُوَلّدات ، ومساوئهن خلا أخبار عشاق العرب ، فإنّى رأيت « **كتاب الشعر والشعراء** » أولى بها ، فلم أُودِعْ هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً ، وما جاء فى ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار . وقد خفّفْت وإن كنت أكثرت ، واختصرت وإن كنت أطلت ! ونحن نسأل الله أن يمحوَ ببعض بعْضًا ، ويغفر بخير شرًّا ، ويجبرَ هزلاً ، ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ، ويتغمدنا بعفوه ، ويُعيذنا بعد طول الأمل فيه ، وحسن الظن به ، والرجاء له ، من الخيبة والحرمان !

ثم ينبه إلى قضية تشغل البال فيقول :

إن مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين .

وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تُصَعّر خدَّك ؛ فتُعْرِض بوجهك ؛ فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب !

قال رسول الله ﷺ : « **من تعَزَّى بعزاءِ الجاهلية فأعِضّوه بهن أبيه ولا تكنوا** »[1].

ولم أترخص لك فى إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هِجيّراك[2] فى كل حال ، ودَيْدَنك فى كل مقال ؛ بل التَّرخُّص منى فيه عند حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تُنْقِصُها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض .

وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا عَلَى عادة السلف الصالح فى إرسال النفس عَلَى السّجِيَّة ، والرغبة بها عن لبسة الرياء ، والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلموا أديانهم وتورعت !

ومن ترك أخذ الحسن لموضعه أضاع الفرصة والفرص تمر مَرّ السحاب .

عن ابن عباس قال : « خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه » . وهذا يكون

---

(١) قال النجم : رواه أحمد والنسائى وابن حبان عن أبىّ بن كعب .

(٢) هِجّيرَاك : عادتك ودأبك ودَيْدَنك .

فى مثل كتابنا لأنه آداب ومحاسن أقوام ، والحسن لا يلتبس بالقبيح ، ولا يخفى على من سمعه حيث كان !

لم يبق إلا أن نقدم لك المؤلف وإن كان لا يحتاج إلى تقديم !

■ مع المؤلـف ■

يستمد الكتاب قيمته من مُؤَلِّفه ، وما هو عليه من علم ومعرفة ، وقد جرى العُرف بأن يُقَدَّم المؤلِّفُ وأثرُه فى مقدمة كلّ عمل يدورُ حول مؤلفاته ؛ لهذا كان واجباً علينا أن نقدمَ فى إيجاز صورة لحياة ابن قتيبة :

إنه هو أبو محمد عبد الله بن مُسْلم بن قتيبة الدينورى وُلِدَ سنة ٢١٣ هـ بالكوفة فى رأى ، وببغداد فى رأى آخر . و كانت نشأته ببغداد ، ففيها تلقى العلم ، وتَفَقّه فى اللغة والدين ، وأَلَمّ بثقافة العصر فى علم الكلام والفلسفة والمنطق عن شيوخ العصر .

ومكنته ثقافته وعلمه من عقد جلسات تدريس كان يروى فيها عن الكُوفيين ، كما كان يروى عن البَصريين ولما تغير الاتجاه السياسى فى الدولة العباسية بعد خلافة المأمون دعى ابن قتيبة للقيام بمهامّ رسمية فصار قاضى دِينَوَر وإليها كانت نسبته وإن لم يكن من أهلها .

ودامت مدة قضائه بها من ٢٣٧ هـ إلى سنة ٢٥٦ هـ تقريباً ثم اعتزل ابن قتيبة الحياة الرسمية وعاد إلى حلقات التدريس سنة ٢٥٦ هـ تقريباً ببغداد حيث توفى سنة ٢٧٦ هـ .

□ مؤلفاته :

ولابن قتيبة تآليف عدة مختلفة المواضيع على أنه يمكن حصرها فى اتجاهات أربعة إذا ما رجعنا إلى أغراضنا العامة ، ويمكن إدراج بَعْضها فى اتجاه يعسر نعته إذ هى بمثابة التصانيف العامة التى ترد عادة فى الثقافة العامة منها :

(١) كتاب الأنواء ، (٢) و كتاب العرب ، (٣) و كتاب المعارف .

أما الصنف الثانى فهو يجمع تصانيف ذات صبغة أدبية بمعنى الأدب المتعارف عليه عندهم حينذاك .

ومنها : كتاب معانى الشعر ، والشعر والشعراء ، وعيون الأخبار ويلى هذا الصنف كتب اتسمت بالاتجاه الدينى بل تبدو لها صلة بالفقه فيه وهى تشكل المجموعة الثالثة **ومنها** مشكل القرآن ، والمسائل والأجوبة ، وجامع الفقه ودلائل النبوة ،والرد على المشبهة ، والميسر والقداح ، وتأويل مختلف الحديث .

على أن ابن قتيبة كان من أئمة اللغة فى زمانه وبهذا نأتى إلى المجموعة الرابعة والأخيرة والتى طغت عليها الصبغة اللغوية وفيها نجد :

غريب القرآن ، ومعانى القرآن ، وأدب الكاتب ، وجامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير ، ومشكل الحديث ، وإصلاح الغلط ، وغريب الحديث .

هذا هو المؤلّف ... وإليك كتابه بعد أن وضعت له عناوين جانبية ، وعلقت عليه ، وخرجت أحاديثه ، وأوضحت من ألفاظه ما يحتاج إلى إيضاح راجيًا أن يكون محقّقًا للغرض ، نافعًا لكل من أراد أن يحيا حياة سعيدة والله الموفق .

محمد إبراهيم الدسوقى

القاهرة فى المحرم ١٤١٣ هـ
يوليو ١٩٩٢ م